«الوفد»: انتخاب رئيس أم «حانوتى»؟

فاجأنى أحد قادة حزب «الوفد»، الذين انصرفوا عن العمل الحزبى، بسؤال مباغت. سألنى: هل ستذهب للمشاركة فى اختيار «الحانوتى» الذى سيتولى تجهيز الحزب لدفنه؟ السؤال شديد القسوة، ولكنه قد لا يكون بالغ الغرابة. ربما يكون صادماً، ولكنه ليس مفتعلاً. قد يكون سائله يائساً، غير أنه صادق.

فهو ينطلق من وجهة نظر ملخصها أن الوفد صار جزءاً من خريطة سياسية قديمة عاجزة عن التطور. ولكن «الوفد»، وغيره من الأحزاب المشروعة، آخر من يُلام على هذا الوضع. فقد كان ضحية جمود سياسى اقترن بقيود على حركة الأحزاب وتجريف تعرض له المجتمع.

ولكنه جنى على نفسه بسبب ضعف مناعته وعدم وعى قادته المؤسسين واللاحقين بأن فى هذا الضعف مقتل حزب كان عريقا. فقد انغمسوا فى صراعات صغيرة ساهمت بمقدار كبير فى تقصير قامة الحزب الذى كاد الناس أن يحملوا سيارة رئيسه عام 1978، مرة فى ميدان الرمل بالإسكندرية، وثانية فى ميدان الساعة بطنطا.

غير أن هذا الرئيس ترك الحزب بعد ربع قرن مضعضعاً، على نحو أغرى خلفه بتحويله إلى «تكية»، وهو «الأفندى» الذى حلم يوما أن يكون مثل «باشوات» الحزب، فقد أخذ أداؤه «الوفد» إلى مشارف الموت. ولكن قبل أن يقوم بدفنه، أطاحته حركة إصلاحية تأخرت كثيرا.

كان قادة هذه الحركة قد ترددوا طويلاً فى مواجهته خوفاً على الحزب. تركوه يفصل من حاولوا نصحه أو تصدوا لبعض أخطائه، اعتقادا فى أن الصدام قد يؤدى إلى تجميد الحزب. ولما اضطروا إلى مواجهته فى النهاية، كان الوقت قد مضى وقلت جدوى الحركة الإصلاحية التى بدأت عهدها بانقسام حرمها من طاقة بعض أهم قادتها.

كان المرض العضال قد تمكن من «الوفد» الذى لم يجد طبيبا مداويا، وهان على قادته فلم يجد فيه بعضهم إلا ساحة لتصفية حسابات صغيرة وتدبير مكائد كبيرة، فأبدعوا فى الخصومة بعد أن نضب معينهم فى غيرها.

وبالرغم من أن رئيسه الحالى حاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وغيّر لائحة الحزب لتكون أكثر ديمقراطية، فإنه اعتمد على مجموعات أو «شلل» تحيط الشبهات بعضها، ودُفع إلى تهميش دور بعض أبرز من قادوا الحركة الإصلاحية معه. وتفرغ بعض هؤلاء الذين هُمشوا للثأر لأنفسهم ولو على حساب ما بقى من الحزب.

ولذلك فقد كثيرون الأمل، مثل صاحبنا الذى يظن أن الرئيس القادم هو الذى سيقع على عاتقه دفن «الوفد».

غير أن هذا المصير المؤلم ليس محتوما. فكل من المرشحين المتنافسين يستطيع الشروع فى عملية إنقاذ، إذا حرص– حال فوزه- على استخلاص دروس انحدار الحزب بتجرد وموضوعية، ونجح فى تحقيق مصالحة جادة، ووضع حداً للصراعات الصغيرة التى أنهكته، وأثبت فعلاً وليس قولاً أنه أكبر من أن ينغمس فى تصفية حسابات، أو يعتمد على من ليسوا فوق مستوى الشبهات.